

المؤتمر الدولي لجمال الدين الحسيني

خطاب جمال الدين الأفغاني في استانبول وما أحدث هذا الخطاب من ردود فعل خير الدين كارامان إن الذين يُكفِّرون السيد جمال الدين ويرمونهم بالزندقة فهم الذين يعتمدون في زعمهم على ثلاثة أدلة رئيسية: فالأول منها هو «انتسابه إلى الماسونية» ، والثاني رده أو ما قال في رده لمقالة رُنَّان، والثالث قوله في خطاب له وذلك في ليلة من ليالي شهر رمضان (عام 1287 / 1871) إن النبوة صنعة من الصناعات التي تنبع من شخصية النبي لها. ونحن بهذه المناسبة في مقالتنا هذه نود أن نتعرض إلى دليلهم الثالث فقط معرضين عن الاشتغال بالدليل الأول والثاني وتاركين لهما إلى مقالات لباحثين آخرين قد يتعرضون إليهما. قصة الخطاب كما حكاها لنا الشيخ محمد عبده: «وصل الاستانة، وبعد أيام من وصوله أمكنه ملاقة الصدر الأعظم عالي باشا، ونزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بمالم يسبق لمثله، وهو مع ذلك بزيه الأفغاني قباء وكساء وعمامة عجرا؛ وحوّمت عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء وعلا ذكره بينهم، وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وادبه، وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم. وبعد ستة أشهر سمّي عضواً في مجلس المعارف فأدى حق الاستقامة في آرائه وأشار إلى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب إليها رفاقؤه. ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الأوقات حسن فهمي أفندي لأنها كانت تمس شيئاً من رزقه فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة 1287 ، فرغب إليه مدير دار الفنون تحسين أفندي أن يلقي فيها خطاباً للحث على الصناعات فاعتذر إليه بضعفه في اللغة التركية، فألج عليه تحسين أفندي فأنشأ خطاباً طويلاً كتبه قبل إلقائه وعرضه على وزير المعارف وكان صفوت باشا وعلي شرواني زاده، وكان مشير الضابطية، وعلي دولتو منيف باشا ناظر المعارف وكان عضواً في مجلس المعارف، واستحسنه كل منهم وأطنب في مدحته. فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب تسارع الناس الى دار الفنون واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد، وحضر في الجمع معظم الوزراء، وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعدّه، وأرسل حسن فهمي أفندي أشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة للتمثيل به. وما كان يجدها لو طلب حقاً، ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الانسانية ببدن حي، وأن كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن. فشبه الملك مثلاً بالمخ الذي هو مركز التدبير والارادة. والحدادة بالعضد والزراعة بالكبد والملاحة بالرجلين، ومضى في سائر الصناعات والأعضاء حتى أتى على جميعها ببيان ضافٍ وافٍ، ثم قال: هذا ما يتألف منه جسم

السعادة الانسانية، ولا حياة لجسم إلا بروح، وروح هذا الجسم إما النبوة وإما الحكمة؛ ولكن يفرق بينهما بأن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب يختص بها من يشاء من عباده، وإما أعلم حيث يجعل رسالاته. أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر والنظر في المعلومات، وبأن النبي معصوم من الخطأ والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه، وأن أحكام النبوات آتية على ما في علم الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. فالأخذ بها من فروض الايمان. أما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها إلا من باب ما هو الأولى والأفضل على شريطة أن لا تخالف الشرع الإلهي. هذا ما ذكره متعلقاً بالنبوة، وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الإسلامية؛ إلا أن حسن فهمي أفندي أقام من الحق باطلاً ليصيب غرضه من الانتقام، فأشاع أن الشيخ جمال الدين زعم أن النبوة صنعة، واحتج لتثبيت الإشاعة بأنه ذكر النبوة في خطاب يتعلق بالصناعة (وهكذا تكون حجج طلاب العنت). ثم أوعز إلى الوعاظ في المساجد أن يذكروا ذلك محفوفاً بالتفنيد والتنديد، فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه واثبات براءته مما رمي به، ورأى أن ذلك لا يكون إلا بمحاكمة شيخ الاسلام (وكيف يكون ذلك)، واشتد في طلب المحاكمة، وأخذت منه الحدة مبلغها، وأكثر الجرائد من القول في المسألة، فمنها نصراء للشيخ جمال الدين، ومنها أعوان لشيخ الاسلام. فأشار بعض أصحاب السيد عليه أن يلزم السكون ويُغضى على الكريهة، وطول الزمان يتكفّل باضمحلال الإشاعات وضعف أثرها. فلم يقبل، ولج في طلب المخاصمة فعظم الأمر وآل الى صدور أمر الصدارة إليه بالجلاء عن الاستانة بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود إن شاء. ففارق الاستانة مظلوماً في حقه مغلوباً لحدثه» ([273]). هذا هو ما كتبه الشيخ محمد عبده فيما يتعلق بحادثة الخطاب ([274]). غير أنه لم ينقل نص الخطاب بل رواه بمعناه مع تأويله وتوجيهه، واتبعه في مسألة الخطاب كل من يؤيدون السيد ويحبونه من العرب والأتراك والعجم وغيرهم ويحتمل أن يكون أعداء السيد ومعارضوه إما قد اعتمدوا على النص الفارسي للخطاب المذكور والمنسوب إلى السيد جمال الدين، وهو الخطاب الذي ورد ذكره في كتاب السيوف القواطع لمن قال إن النبوة صنعة من الصنائع لأحمد خليل الفوزي، وكيل الدرس (أي ناظر المدارس) لشيخ الاسلام حسن فهمي؛ ونصه كما يلي: (هر صناعتی که موضوع آن کلی و نفع آن بر کل راجع بوده باشد آن صناعت اشرف و افضل از سائر ارباب صنایع است مانند پیغمبری و فیلسوف و خلیفه و فقیهی چنان بیان شد. آن قوة فاعلة راسخ است در موضوعی از موضوعها با فکر صحیح از برای غرض از اغراضها محدود ذات بوده باشد چه وهبی بوده باشد چه کسبی. موضوع صناعت یا کلی است و بحث متعلق بعلم و عمل است و صلاح در هر دو حال تابع غرض و آن صناعت پیشه انبیا و فلاسفه است. هم میتوانم از برای صناعت کنم بس مکویم صناعت صفة فاعله است در موضوع از موضوعها درین هنگام جائز است نسبت آن حضرت میدهم ولیکن از موضوع مسئله خارج میشوم. میتوانم بگویم که

شرافت صنعت بر حسب شرافت موضوع آن انسان ویا افعال ویا متعلقات آن بوده باشد و مقصود آن اصلاح بوده باشد اشرف از سائر صنائع خواهد پس پیغمبری و فیلسوفی و خلیفه ی و فقیهی و طبیبی اشرف از سائر خودها بود این در صنعت شریفه یعنی پیغمبری و فیلسوفی، اگر موضوع کلی بوده باشد و غرضی مانع فساد موضوع بوده باشد این صنعت ارزل و اخس و اشنع صنایع است و مانع آن اخس و ارزل و مستوجب قطع و قتل و حبس است مانند مبتدعان و اباحیان چون اصحاب مزدک و انبیاء کذبه که غرض اینان هدم قواعد حکمت و انتظام و آسایش است. باید دانست که هر روز کاری و قرنی بصاحب ناموس و پیغمبر احتیاج نه دارد چه يك نظم و شریعت اهل ادوار بسیار را کفایت کند و اما هر روزکاری عالم مدبر باید اگر تدبیر منقطع شود نظام مرتفع گردد و بقای نوع انسان بر وجه اکمل صورت نه نبود و این مدبر را ولایت تصرف بود در جزئیات ناموس در هر روزکار. پس بدان آنچه فرق در میان نبی و فیلسوف حکیم از سه وجه تواند بود یکی آنکه نبی را حقیقت اشیاء و مصالح افعال عباد بر وجه الهام و وحی حاصل میشود و فیلسوف را از روی استدلال و برهان دوم آنکه نبی را خطا واقع نه شود و حکیم را باشد که خطا کند و سوم آنکه حکم حکیم بر نهج کلی است و اصلاً نظر بر اجزاء زمان نه دارد و حکم نبی بر حسب اجزاء زمان است از آن جهت است که احکام انبیاء مختلف است بلکه يك نبی را نیز احکام مختلفه باشد چنانکه در زمانی حکمی فرماید و در زمان دیگر بر حسب مصلحت وقت و زمان آن را نسخ فرماید و حکیم احکام را بیان میکند که با اخلاف احوال و تبدل رجال و مرور زمان اختلاف نه پذیرد و این از نقص حکیم است که انحراف کلی را از حد اعتدال نه داند و علاج انحراف را نه فهمد بلکه همیشه حفظ صحت فرماید والسلام علی من اتبع الهدی)، ([275]) لقد نقل أحمد فوزي هذه العبارات الفارسية في أجزاء متفرقة في كتابه المذكور ثم حکم بکفر السید قائلاً: 1- سوی بین النبی والفیلسوف ، وهذا کفر. 2- عدّ النبوة صناعة، والصناعات کسبية، ویلزم من هذا اعتقاد أن النبوة کسبية، وهذا کفر. 3- المعنى العرفي للصناعة والصنعة هو العمل الکسبي، ونسبة الصناعة إلى [] غیر جائز- یشتوجب أن یكون [] عزوجل محلاً للحوادث، وهذا الاعتقاد کفر. 4- بقوله «أنبياء کذبه» أنکر عصمة الأنبياء وافتري علیهم بنسبة الکذب إلیهم، وهذا کفر (وغنى عن البیان أن السید قصد بقوله «أنبياء کذبه» المتنبيون الکذابون فقط). 5- بقوله «هر روزکاری پیغمبر احتیاج ندارد» أنکر الأنبياء کلهم إلا واحداً، وهذا کفر لأن الأنبياء أكثر من واحد. 6- إن عباراته في الفقرة الأخيرة التي تبين الفرق بين النبی والفیلسوف ویقرر بأن النبی یوحى إلیه ویلهم وأنه لا یوجد الخطأ في تبلیغات الأنبياء؛ هذه کلها تقیة أراد بها ستر کفره وزندقته. ونحن نلاحظ: أ- أن المؤلف ینطلق من حکمه المسبق علی السید، فیحرف کلامه ویرتب المقدمات لینتج ما یقصده من النتائج ویلزم الرجل ما لا یلزم شرعاً وعقلاً ویغالط أو یخطئ في فهم کلامه كما أخطأ في معنى «أنبياء کذبه» فیکفره

بما لا يستوجب التكفير. 2- أن النص الذي ساقه المؤلف في كتابه مؤلّف من أجزاء متفرقة وانقصة لانجد فيها النص الكامل للخطاب. 3- أن الثابت تاريخيا هو كون السيد قد ألقى خطابه هذا باللغة التركية؛ والنص الفارسي لم يحصل عليه أحد فيما وصل إلينا من مؤلفات السيد، كما لم يكن عند أحد دليل ولا يوجد لنسبته الى السيد دليل. 4- عرض السيد مسوّد خطابيه إلى الوزراء والباشوات قبل أن يلقى، فاستحسنوه ولم ير فيه أحد منهم ما ينافي العقيدة السليمة؛ ويستبعد في المنطق السليم أن يقبل الوزراء خطاباً فيه نص ينافي العقيدة الإسلامية السمحة. 5- وعشية ليلة إلقاء الخطاب، قد دعا صفوت پاشا، وزير المعارف، جودت پاشا وزير العدل إلى قصره، فكان السيد حاضراً في المجلس. وعندما رأى جودت پاشا نص الخطاب المكتوب سأله عما يعنى بالصناعة، فقال السيد: «أعنى بالصناعة والصناعة هنا الشغل والعمل عموماً». قال جودت پاشا: لو كنت لجأت إلى كلمة الصنع بدل الصناعة لكان أولى وأحسن، وكنت قد استبعدت عن نفسك سوء الفهم أو الإيقاع فيه من قبل السامعين. وهذا يعني أن جودت پاشا لم يرَ في النص من بأس غير هذا في الإلقاء. وقد كتب في تقريره العريض إلى السلطان عبد الحميد الثاني في عهده كما يلي: لم يكن هناك سبب لنفي وإبعاد السيد جمال الدين وتغريبه غير استعماله كلمة الصناعة - المنافسة لعرف المملكة - بدل كلمة الصنع أو العمل أو الشغل ([276]). 6- ذكرت الجهة الرسمية والمختصة قرار النفي بالعودة إن شاء، كما أشار إليه الشيخ محمد عبده، وذلك بعد سكون الفتنة. وقد دعاه عبد الحميد الثاني إلى الوطن العثماني بعد سنين من منفاه؛ ورجوع السيد إلى الوطن كان سبباً لتكريمه من قبل السلطان وحاشيته، فلم يدع أحد حينذاك بأنه قد ارتد عن دينه وكفر بسبب خطابه المذكور، كما لم يذهب أحد إلى أنه يجب عليه العقاب الشرعي. هذا، وقد ترجم كتاب السيوف القواطع إلى اللغة التركية من قبل خير الدين الفيضى، (وهو ابن المؤلف)، وطبعت الترجمة سنة 1298 (أي بعد عشر سنوات من الحادثة) بالحروف العثمانية، وبعد ذلك نرى أحد الصحفيين قد طبع الكتاب مرة أخرى بالحروف اللاتينية في استانبول سنة 1976 وقد ألف شاب درس الطب في الولايات المتحدة كتاباً سماه المقالات حول جمال الدين الأفغاني (استانبول، 1996م) فجمع فيه أسماء كل من كتب حوله من المقالات. وقد رد فيه المؤلف كل من حاول الدفاع عن السيد وتأييد إخلاصه في العقيدة، مؤيداً فيه الآراء التي تتهمه وتذمه وتحكم عليه بالكفر. ومن الجدير بالذكر إن جمال الدين الأفغاني قد لقي قبولاً وترحيباً منذ عهده وحتى اليوم في تركيا من قبل هؤلاء الذين يحترمون آراءه ويؤيدون في دعواه. فمنهم الشاعر الوطني والمفكر الشهير محمد عاكف أرسوى، وهو الذي ترجم عدداً غير قليل من مقالات جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده إلى اللغة التركية. وكذلك الشيخ أحمد حمدي آقسكي (رئيس شؤون الديانة السابق بجمهورية تركيا) الذي ترجم كتاب محاورات المصلح والمقلد لرشيد رضا إلى التركية

أيضاً. وعندما كلاًّ فتني اللجنة العلمية بالموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية أن أكتب للموسوعة مادة «جمال الدين الأفغاني» قبلتها عن ظهر قلب، فحاولت أثناء التأليف أن أقف على حقائق ملموسة فيما يتعلق بواقع السيد وحياته العلمية وشخصيته الجبارة؛ فاستنتجت أثناء البحث العلمي الشاق أنه كان ولا يزال عبقريةً من عباقرة العالم الإسلامي عبر تاريخنا المشرق. فكان رجلاً صادقاً في إيمانه، مخلصاً في همته العالية ومقاصده الرفيعة، إذ ضحى حياته لها، فعاش في دائرة الإسلام من أجل الإسلام والمسلمين حتى تكون كلمة الله هي العليا وعزة المسلمين هي راية المجتمع الإنساني المعاصر. فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ويستقر في تاريخ بني البشر. والسلام عليكم